

علم التفسير: نشأته ومراحل تطوره

مقدمة:

لقد أنزل القرآن الكريم عربياً، على رسول عربي، بلسان عربي مبين. فكان ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلاً، لأن الله تعالى تكفل ببيانه وحفظه له. قال عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَذَكِّرْهُ ﴿٢﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٣).¹ ثم أمر ﷺ ببيانه لأصحابه بقوله أو بفعله أو بإقراره. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ (٤).² فتعلم الصحابة التلاوة والعلم والعمل جميعاً لأنه نزل بلغتهم. قال ابن خلدون: (إن القرآن نزل بلغة العرب، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه ومفرداته وتراكيبه، وإن كانوا يتفاوتون في الفهم، فقد يغيب عن الواحد منهم ما لا يغيب عن الآخر).³

وبعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم ازدادت الحاجة إلى بيان القرآن الكريم تبعاً لاتساع جغرافية الدولة الإسلامية ودخول العجم في الإسلام. فكيف نشأ علم التفسير وما هي مراحل تطوره؟

أولاً: التفسير في عهد النبوة

نشأ علم التفسير مبكراً في عصر النبي ﷺ الذي كان أول مبين للقرآن، يبين للناس ما نزل على قلبه من الوحي. وكان هو المعلم الأول للقرآن الكريم تلاوة،

¹ - سورة القيامة: 17-19.

² - سورة النحل الآية 44.

³ - المقدمة: ص 489.

وتدبرا، وتطيقا. قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾¹.

وقد اختلف العلماء في تحديد المقدار الذي بينه الرسول ﷺ من القرآن فذهبوا في ذلك مذهبين:

المذهب الأول يرى أصحابه أن الرسول ﷺ قد بين القرآن كله. وهو رأي جمع من السلف كما قال الإمام القرطبي في تفسيره². ولعله مذهب ابن جرير الطبري الذي يمكن استنباطه من خلال تأويله لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قال: "أما الخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ أنه لم يكن يفسر من القرآن شيئا إلا آي بعده، فإن ذلك يصحح ما قلنا من القول في الباب الماضي قبل وهو: أن من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تفصيل جمل ما في آية من أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه الذي هو مجمل في ظاهر الترتيل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة، لا يدرك علم تأويله إلا ببيان من عند الله على لسان رسوله ﷺ وما أشبه ذلك مما تحويه آي القرآن من سائر حكمه الذي جعل الله بيانه لخلقه إلى رسوله ﷺ، فلا يعلم أحد من خلق الله تأويل ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ ولا يعلم رسول الله ﷺ - إلا بتعليم الله إياه ذلك بوحيه إليه. .. فذلك هو الآي التي كان ﷺ يفسرها لأصحابه بتعليم جبريل إياه. وهن لا شك آي ذوات عدد. ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله ﷺ أنه كان لا يفسر من القرآن شيئا إلا آيا بعده هو ما يسبق إليه أوهام أهل الغباء من أنه لم يكن يفسر من القرآن إلا القليل من آيه واليسير من حروفه، كان إنما

¹ - سورة الجمعة الآية 2.

² - الجامع لتفسير أحكام القرآن.

أنزل إليه ﷺ الذكر لترك للناس بيان ما أنزل إليهم، وليس لبيان ما أنزل إليهم "وقد تابع ابن تيمية تأويل ابن جرير الطبري بصيغة صريحة واضحة بقوله: (يجب أن نعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى: (لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يتناول هذا وهذا. وإذا كان الرسول قد بين المعاني والألفاظ القرآنية، فإن ذلك يعني أنه قد فسر لصحابته كل القرآن الكريم: أمره ونهي، حلاله وحرامه، محكمه ومتشابهه ناسخه ومنسوخه، عمومه وخصوصه)¹.

المذهب الثاني: يرى أهله أن الرسول ﷺ بين فقط جزءا من القرآن الكريم. وبذلك قال الإمام السيوطي، وجماعة من العلماء المحدثين منهم الشيخ متولي شعراوي الذي يرى ضرورة التفريق بين آيات الأحكام والآيات الكونية. فإذا جاز لنا أن نقول إن الرسول ﷺ فسر القرآن كله، فإن ذلك سيضعنا أمام مفارقة غريبة. إذ كيف سيفسر الآيات الكونية. أيفسرها على حقيقتها التي هي عليها في الواقع، أم يفسرها بما تطيقه عقول معاصريه ؟ وفي ذلك يقول: لم يفسر لنا رسول الله ﷺ كل القرآن، لأنه لو فسر له كان يجب أن يفسره بما تطيقه عقول معاصريه. ولو فسر به بالأشياء التي توجد في القرن العشرين أو الثلاثين أو الأربعين لتعجب معاصروه أيما تعجب، ولاستعظموه أيما استعظام. لأنه إلى الآن مازال أناس ينكرون أن الأرض تدور. ولو أنه ﷺ فسر على قدر عقول معاصريه ومعلوماتهم الكونية لحجر علينا. لأن من يتصدر لتفسير القرآن بعد ذلك سيواجه بأن الرسول فسر هكذا، وعليك ألا تزيد عن ذلك. ولذلك فرسول الله ﷺ ترك تفسير القرآن حتى تأخذ كل مرحلة فكرية من لمحات القرآن بقدر ما تستطيع. وذلك في أمور الكونيات. أما المطلوب من الأحكام فقد بينها صلوات الله عليه وأوضحها للناس². ويستخلص من ذلك أنه ﷺ لم يفسر القرآن كله. لأنه لو فسر كله للزم

¹ - مقدمة في أصول التفسير.

² - تفسير الشيخ الشعراوي.

اعتبار التفاسير - كل التفاسير - ضربا من العبث وتحصيل الحاصل من جهة، وينتج عن ذلك جمود القرآن جمودا يجعله متجاوزا بمضي الزمن، فضلا عن أنه يشكل مصادرة خطيرة للعقل البشري من جهة أخرى. ومعلوم أن الحديث هنا عن بيان الرسول ﷺ للقرآن بالمعنى الشامل للسنة. أي بالقول والفعل والإقرار. يقول الدكتور صبري متولي: (إن التفسير النبوي للقرآن ليس معناه الحجم المقروء الذي وصل إلينا، بل إن أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته تعد تفسيراً للقرآن الكريم. وقد قالت عائشة رضي الله عنها (كان خلقه القرآن¹)، لأن التفسير النبوي إما أن يكون بنص صريح مباشر، وإما بنصب دلالة عليه، إذ سنة الرسول عليه السلام تفسير للقرآن الكريم. فمن النوع الصريح ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ إِلَّا هَلَكَ. قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)² قَالَ: «ذَاكَ الْعَرَضُ يُعَرَّضُونَ. وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ»³.

ومن غير الصريح ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)⁴

وقد تميز التفسير في العهد النبوي بما يلي:

- 1 - ما فسرّه النبي ﷺ من القرآن الكريم بشكل صريح ومباشر قليل وليس بكثير.
- 2 - ما فسرّه النبي ﷺ من القرآن الكريم بعموم سنته القولية والفعلية والتقريرية كثير. لكن هذا قائم على قدرة المفسر على الربط بين معنى الآية والحديث.

¹ - رواه الإمام مسلم.

² - سورة الانشقاق: 8.

³ - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب.

⁴ - صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود

3 — ظهور بوادر فهم بعض الصحابة لبعض الآيات القرآنية على وجه من وجوه التأويل.

4 — شهود العهد النبوي لبدايات التفسير بالرأي.

5 — النهي في هذه المرحلة عن كتابة شيء غير القرآن الكريم.

ثانياً: التفسير في عصر الصحابة

بعد وفاة النبي ﷺ اشتغل جماعة من الصحابة بتفسير القرآن الحكيم، واشتهر منهم عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وكان أكثر المفسرين من الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ومن المكثرين في التفسير من الصحابة عموماً عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

وقد تميز التفسير في هذا العصر بما يلي:

- 1 — عدم الاعتماد على الإسرائيليات في التفسير إلا نادراً.
- 2 — الاختصار في التفسير على ما تدعو الحاجة إلى بيانه.
- 3 — الاكتفاء ببيان المعنى العام للآيات وعدم التكلف والتعمق المذمومين.
- 4 — الاعتماد على الرواية والتلقين، وعدم التدوين. مخافة اختلاط القرآن بالتفسير، لذا لم يظهر تدوين للتفسير ولا لغيره من العلوم إلا نزر يسير معروف في تاريخ التدوين وهو الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص.
- 5 — الاهتمام بالبيان المقرون بالعمل والتطبيق.
- 6 — قلة اختلافهم. وأكثر اختلافهم كان اختلاف تنوع، نظراً لاتحادهم في العقيدة قال ابن تيمية: (إن الخلاف في التفسير الأثري يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، ويرجع ذلك إلى ثلاثة وجوه:

1- أن يعبر كل منهم عن الاسم بعبارة غير عبارة صاحبه، فالمسمى واحد. وكل اسم يدل على معنى لا يدل عليه الآخر مع أن كليهما حق.

2- أن يذكر كل منهم في تفسير الاسم بعض أنواعه على سبيل التمثيل للمخاطب لا على سبيل الحصر.

3- أن يذكر أحدهم لتزول الآية سببا أو أكثر، ويذكر الآخر خلافاً. وهو فيما يروى لا يعد خلافاً¹.

4- اعتبار التفسير في هذه المرحلة جزءاً من الحديث بدليل وجود أبواب للتفسير في كتب الحديث الستة الصحاح مما روي عن النبي ﷺ. ثم انفصل عن الحديث بعد ذلك وأصبح جزءاً من المعرفة الإسلامية الذي له خصائص تميزه عن بقية المعارف والعلوم.

ونظراً لاتساع البلاد الإسلامية بفضل الفتوحات والغزوات، فقد انتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ومع كل واحد منهم علم غزير، فأسسوا مدارس لبيان القرآن متعددة. ففي مكة المكرمة نشأت مدرسة ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ بقوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)² وفي المدينة المنورة نشأت مدرسة أبي بن كعب، وعلي بن طالب. وفي العراق نشأت مدرسة عبد الله بن مسعود.

وقد نبه بعض العلماء على أن كثيراً من روايات التفسير المنسوبة إلى حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس (الذي كان عمره نحو الثانية عشرة حين توفي رسول الله ﷺ) لا ينبغي لطالب العلم أن يعتمد عليها إلا بعد التثبت من صحة سندها. ذلك انه مع اعتقادنا الجازم بمكانة ابن عباس العلمية، نكاد نشك، كما شك

¹ - مجموع الرسائل والمسائل

² - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ اللهم علمه الكتاب.

الأقدمون في الكثير مما روى عنه في التفسير حتى قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث)¹ ولعل المتتبع لما ورد في التفاسير عبر التاريخ يجد في كثير منها ما يدعو إلى التبين والتثبت. من ذلك مثلاً ما حكى عن ابن عباس والكلبي ومقاتل أن الموت والحياة جسمان. والموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات. وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بقاء وهي التي كان جبريل عليه السلام والأنبياء عليهم السلام يركبونها خطوفاً مدّ البصر فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها إلا حيي، ولا تطفأ على شيء إلا حيي. وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي. حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس². وأمثال هذا كثير لا يحصى، ويكاد يغطي معظم تفسير الآيات الكريمة، ولا سيما عند ما تتعرض الآيات لقصة من القصص أو لأمر من الأمور الغيبية.

— حكم تفسير الصحابة:

تفسير الصحابي من حيث حكمه ينقسم إلى أقسام منها:

- 1 — ما له حكم الرفع كأسباب التزول والإخبار عن المغيبات وما لا مجال للاجتهاد فيه. فحكمه القبول ووجوب الأخذ به إذا صحّ النقل فيه.
- 2 — ما أجمع عليه الصحابة في تفسير آية معينة. فذلك يجب قبوله، والأخذ به، وتحرم مخالفته.
- 3 — ما رجعوا فيه إلى اللغة، فحكمه القبول. لأنهم أهل اللسان العربي، وهم أعلم بلغتهم من غيرهم.

¹— ينسب له تفسير جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الشهير بالفيروزآبادي صاحب القاموس.

وانظر الإتيان في علوم القرآن: 2/ 129.

²— إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (ت 982هـ).

4 — ما اختلفوا فيه من أقوال في تفسير آية معينة، فيرجح بين أقوالهم إذا تعذر الجمع بينها. ويؤخذ بأحدها دون ابتداع قول جديد في تفسيرها.

5 — ألا يرد القول إلا عن أحدهم، ولا يُعلم له مخالف، فالأخذ به أولى، لكنه ليس ملزماً، ويتقوى هذا القسم إذا حفت به قرائن القبول، كأن يصدر عن أحد مشاهير الصحابة بالتفسير، أو يأخذ به كبار علماء التابعين في مجال التفسير ونحو ذلك.

6 — ما رجعوا فيه إلى أهل الكتاب. فهذا له حكم الإسرائيليات، فإن وافق الكتاب والسنة أخذ به وإن خالفهما تعين رفضه. وإن كان مسكوتاً عنه تجوز روايته، دون وجوب الأخذ به. ولا يُصدّق ولا يُكذّب.

ثالثاً : التفسير في عصر التابعين:

تنتهي المرحلة الثانية للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثالثة ببداية عصر التابعين الذين تتلمذوا على الصحابة فتلقوا غالب علمهم المتعلق ببيان القرآن الكريم منهم. وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير، اشتهر بعض أعلام التابعين أيضاً. قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: (وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى)¹.

وقد علمنا مما سلف ذكره أن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن الكريم، وإنما فسروا ما استشكل فهمه على معاصريهم مما دعت الحاجة إلى بيانه. ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما

¹ - التفسير والمفسرون.

بعد الناس عن عصر النبي ﷺ، والصحابة. فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى بيان ما لم يتم بيانه في ما سلف. فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، والتباس. ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب، ومعهودهم في الاستعمال وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن. ويمكن تأطير التفسير في عصر التابعين ضمن المدارس التالية:

المدرسة المكية:

وكان يقودها ابن عباس رضي الله عنه. ومن أشهر تلاميذه من التابعين: مجاهد بن جبر وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جببر، وطاوس بن كيسان. وأكثر ما اخذ من علم التفسير يرجع إلى هذه المدرسة التي تعتمد على الرواية، والرأي والاجتهاد وعلم اللغة.

المدرسة المدنية:

وكان يؤمها أبي بن كعب وزيد بن ثابت. رضي الله عنهما. ومن أشهر تلاميذها من التابعين: زيد بن اسلم وابنه عبد الرحمن، وأبو العالية، ومحمد بن كعب. واهتمت هذه المدرسة بحفظ السير والمغازي وعلم القراءة.

المدرسة الكوفية:

أنشأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ومن أشهر تلاميذها من التابعين: علقمة بن قيس، وأبو عبد الرحمن السلمي. ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، وسعيد بن المسيب، والأسود بن يزيد. واهتمت هذه المدرسة بالأحكام والفقه أكثر من التفسير.

المدرسة البصرية:

أسسها انس بن مالك وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما. ومن أشهر تلاميذها: الحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي. وتميزت هذه المدرسة في

الرواية بشكل عام ولها دور كبير في حفظ علم التفسير. فأكثر المرويات من هذه المدرسة بعد المدرسة المكية.

ويتميز التفسير في هذه المرحلة بما يلي:

1- الاعتماد في التفسير على التلقي والرواية إلا قليلاً. فأهل كل بلد يروون عن إمامهم من الصحابة. فأهل العراق عن ابن مسعود، وأهل مكة عن ابن عباس، وأهل المدينة عن أبي وهكذا..

2- دخول كثير من الإسرائيليات في التفسير نظراً لدخول أهل الكتاب في الإسلام كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريح.

3- ظهور بوادر الخلاف المذهبي في هذا العصر.

4- كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين. وهو خلاف يرجع إلى التباين في الفهم والاجتهاد.

حكم تفسير التابعين:

تفسير التابعي من حيث حكمه ينقسم إلى أقسام هي:

- 1- ما أجمعوا عليه فهو حجة يجب الأخذ به.
- 2- ما اختلفوا فيه، فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على مَنْ بعدهم، وليس الأخذ بأحد أقوالهم ملزماً.
- 3- إذا ورد التفسير عن أحدهم ولا يُعلم له مخالف؛ فينبغي تقديمه على قول من جاء بعد التابعين ولكنه ليس ملزماً ولا يجب الأخذ به.
- 4- ما رجعوا فيه إلى أهل الكتاب فحكمه حكم الإسرائيليات. وقد تقدم ذِكْرُ ذلك عند الحديث عن تفسير الصحابة.

5- ما لا مجال للاجتهاد فيه كالإخبار ببعض المغيبات وأسباب التزول فهذا له حكم الحديث المرسل، فلا يُقبل إذا انفرد به التابعي. قال ابن تيمية: (قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة. فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك)¹.

رابعاً: التفسير في عصر التدوين:

وعلى امتداد هذه العصور. بدءاً من عصر النبي ﷺ، مروراً بعهد الصحابة رضي الله عنهم، ثم عصر التابعين. يمكن القول أن التفسير ظل محتفظاً بطابع الرواية (المشافهة) ولم يُدون إلا في عهود جاءت بعد ذلك. إذ بدأ عصر التدوين في التفسير في أواخر القرن الأول الهجري حيث دون فيها مع الحديث النبوي بمختلف أبوابه. ومر بمراحل متتالية على النحو الآتي:

المرحلة الأولى:

دون فيها التفسير باعتباره باباً من أبواب الحديث كباب الطهارة وباب الصلاة، فلم يُفرد له تأليف خاص يفسر القرآن، سورة سورة، وآية آية من بدايته إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طأف في الأمصار المختلفة يجمع الأحاديث. فجمع بجوار ذلك ما روي في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو إلى التابعين. ومنهم يزيد بن هارون السلمي (ت: 117)، وشعبة بن الحجاج (ت: 160) وسفيان الثوري.

¹ - مقدمة في أصول التفسير.

وتتميز هذه المرحلة بمزايا أهمها:

- 1— العناية الخاصة بالإسناد.
- 2— إيراد التفسير ضمن كتب الحديث باعتباره بابا من أبواب الحديث.
- 3— عدم الاختصار على التفسير المرفوع للرسول ﷺ واشتماله على تفسير الصحابي والتابعي.

المرحلة الثانية:

أصبح التفسير علما مستقلا قائما بنفسه شاملا لآيات القرآن الكريم. ووضع التفسير لكل آية من القرآن ورتب ذلك حسب ترتيب المصحف. وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم: ابن ماجه (ت: 273)، والطبري (ت: 310)، والنيسابوري (ت: 318). وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى النبي ﷺ، وإلى كل الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين وتابع التابعين. أي أنها تمثل التفسير بالرواية. وقد نص ابن تيمية في مجموع الفتاوى، وابن خلكان في وفيات الأعيان على أن أول من صنف في التفسير هو عبد الملك بن جريج (ت: 150).

وتتميز التدوين في هذه المرحلة بما يلي:

- 1— إن مادون فيها كان بالتفسير المأثور عن الرسول ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم.
- 2— كان التفسير في تلك المرحلة بالإسناد المتصل إلى صاحب التفسير المروي عنه.
- 3— لم تكن لهم عناية بالنقد وتحري الصحة في رواية الأحاديث. بل إن بعضهم ذكر ما روي في كل آية من صحيح، وسقيم ولم يتحر الصحة.
- 4— اتساع وانتشار رواية الإسرائيليات.

المرحلة الثالثة:

في هذه المرحلة صنف في التفسير بالمأثور خلقٌ كثير، اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوا لقائلها. فدخل الوضع في التفسير، والتبس الصحيح بالسقيم. كما ظهر في هذه المرحلة التفسير بالرأي الحمود منه والمذموم. وتجراً البعض على القول في القرآن بغير علم.. فصار كل من يعجبه قول يورده من غير أن يخطر في باله شيء يعتمد عليه. فيأتي من بعده فيظن أن ما ورد له أصل، غير ملتفت إلى صحة ولا باحث عن سند. وتطورت كثيراً رواية الإسرائيليات وتوسعت في استقصاء الأخبار الإسرائيلية والخوض بما لا فائدة في معرفته.

المرحلة الرابعة:

ثم خطى التفسير خطوة رابعة هي أوسع الخطوات وأفسحها. امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا. فبعد أن كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نُقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير يختلط فيه الفهم العقلي بالتفسير النقلي. وكان ذلك على تدرج ملحوظ في ذلك.

ولقد كان علم التفسير خلال هذه المراحل يضم كل ما يتعلق بفهم القرآن. فلما توسعت الاختصاصات العلمية وظهر العلماء الذين اختصوا في فن معين. أخذ كل من أرباب الاختصاص يتناول من تفسير القرآن الكريم ما يتعلق باختصاصه فيفرده بالبحث والتأليف. فألف علماء العربية في تفسير القرآن فكان علمهم يتركز على إبراز بلاغته العربية، وإعجازه اللغوي. ومن ذلك تفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير أبي السعود. وألف علماء الفقه فيه أيضاً فكان علمهم منصباً على الجانب الفقهي في القرآن أكثر من غيره. مثل كتاب أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي والجامع لأحكام القرآن للقرطبي. وألف فيه علماء التوحيد والكلام ليستخرجوا منه

دلائل التوحيد وفروعه فكانت عنايتهم بهذا الجانب دفاعاً عن العقيدة الإسلامية كالإمام فخر الدين الرازي في كتابه مفاتيح الغيب. ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم شتى، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه.

هذه أهم المراحل التي مر بها التفسير في عصر التدوين. لكن ينبغي أن ندرك أن تتابع هذه المراحل لا يعني أن كل مرحلة منفصلة انفصالاً تاماً عن المرحلة السابقة أو التالية، بل ظلت كل مرحلة من المراحل فيها نواة أو بذور للمرحلة السابقة أو اللاحقة.

التفسير بالمأثور: مفهومه وأنواعه

مقدمة:

من المعلوم أن علم التفسير من أجل العلوم وأشرفها، باعتبار أساسه وتاريخه وموضوعه وغايته. فأساسه القرآن الكريم والحديث النبوي، وتاريخه أول العلوم الإسلامية، وموضوعه: كلام الله تعالى، وغايته: معرفة معانيه وإدراك مرامييه. وسنام هذه المعرفة: التفسير بالمأثور لأهميته الكبرى في خدمة القرآن. لأنه تفسير من رب العالمين، أو من رسوله الأمين، أو من صحابي جليل شهد التزويل وعرف التأويل، أو تفسير تابعي نهل من مدرسة النبوة عن الصحابة الكرام.

ثم إن التفسير بالمأثور مطلب أساسي لمن أراد أن يستجيب لله تعالى فيتدبر كلامه. ومنطلق رئيسي لمن أراد أن يفسر القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد. لأنه يتحتم عليه أن يطلع على معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والغريب والمشكل. والوقف والابتداء، والقراءات وأوجهها، والقراءات الشاذة التفسيرية. والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، ، والأحاديث المخصصة للعام، والمقيدة للمطلق... وهذه العلوم لا تؤخذ إلا بالنقل الصحيح والسند المتصل عمن شهدوا التزويل. وهي لا تخرج عن موضوع التفسير بالمأثور بل هي منه أو خادمة له.

فما مفهوم التفسير بالمأثور. وما هي أنواعه ومراتبه. وما هي أحكامه وحكمه؟ وما هي مصادره؟

تعريف التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو تفسير القرآن الكريم اعتماداً على ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما ثبت عن رسول الله ﷺ في ذلك، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد عرفه الشيخ مناع القطان بقوله: "التفسير بالمأثور هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب. ... من تفسير القرآن بالقرآن أو السنة... أو بما روي عن الصحابة. .. أو بما قاله كبار التابعين¹.

وعرفه قبله الشيخ عبد العظيم الزرقاني بقوله: (هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابي بيانا لمراد الله تعالى من كتابه². ثم قال: وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف بين العلماء: منهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي". ثم جاء بعده الشيخ محمد حسين الذهبي (ت 1977م) فذكر هذه الأنواع الأربعة تحت مصطلح التفسير المأثور، معللاً دخول تفسير التابعي في المأثور بقوله: (وإنما أدرجنا في التفسير المأثور ما روي عن التابعين وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي؟ لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور كتفسير ابن جرير وغيره لم تقتصر على ما ذكر مما روي عن النبي - ﷺ - وما روي عن الصحابة، بل ضمنت ذلك ما نقل عن التابعين في التفسير)³.

وقد تحفظ الدكتور مساعد الطيار على التعريف الاصطلاحي للتفسير بالمأثور متسائلاً عن سبب تحديده في مصادر أربعة وعن مدى ملائمة الإطلاق الاصطلاحي للتعريف اللغوي لمصطلح مأثور فقال: (إن تفسير القرآن بالقرآن لا يدخل ضمن التفسير بالمأثور، لأن تفسير القرآن بالقرآن لا نقل فيه حتى يكون طريقه الأثر. بل هو داخل ضمن تفسير من فسر به. فإن كان المفسر به الرسول عليه السلام فهو من التفسير النبوي. وإن كان المفسر به الصحابي فله حكم تفسير الصحابي. وإن كان المفسر به التابعي فله حكم تفسير التابعي)⁴. ثم عزا ذلك اللبس الذي وقع لبعض

¹ - مباحث في علوم القرآن، بمناع القطان. ص 358.

² - مناهل العرفان في علوم القرآن. للزرقاني. ص 282.

³ - التفسير والمفسرون: 36/1.

⁴ - التفسير بالمأثور، نقد للمصطلح وتأصيل له، مساعد الطيار.